مجلة العلوم القانونية والاجتماعية

Journal of legal and social studies

Issn: 2507-7333

Eissn: 2676-1742

التّربية من الإشكالات المعرفيّة إلى بناء الهويّة الأرضيّة عند إدغار موران

Education from cognitive problems to building a terrestrial identity in Edgar Morin

عتيقة بلعقروز*

جامعة محمّد لمين دبّاغين، سطيف 2 (الجزائر)، atikabelagrouz20@gmail.com

تاريخ إرسال المقال: 2020/11/30	تاريخ القبول: 2021/02/12	تاريخ النشر: 2021/03/15

* المؤلف المرسل

الملخص:

إنَّ رفض الصِّيَغ القديمة للتّربية عند إدغار موران، أدَّى إلى الاعتراف بوُجود عيوب في نظام كلّ تعليم، بما يشتملُ عليه من مناهج وبرامج ومُقرَّرات دراسيّة، ينبغي لنا مُعالجتُها وتصحيحُها، بإبراز مكمَن الضُّعف والقوّة فيها لا من ناحية مهارات التّدريس وإنّما من ناحية المحتوى المعرفي المقدَّم لأبنائنا. وحتَّى نتمكّن من إبراز رؤية إدغار موران فإنَّ هذا المقال يستهدفُ توضيح فكرتيْنِ أساسيتيْنِ، تُلخِّصانِ بعنايةٍ جُزءًا بسيطًا من فلسفتهِ في التّربية، فيما يتعلّقُ أوّلًا بالمعرفة، وثانيًا بالهويّة الأرضيّة. وإنَّ التّربية الّتي تهدفُ إلى تبليغ سوى المعرفة، تربيةٌ قاصرة، وعاجزة بل جاهلة بماهيّة المعرفة الإنسانيّة، بطبيعتها وآلياتها وحدودها، في نُزوعها أوَّلًا وقبل كلّ شيء إلى الخطأ والوهم. ولأنّ الشّيء الأهمّ في التّربية أيضًا من أنْ نعرف المعرفة ونُدرك حدودها، ما هُوَ؟، أنْ نعلم أنّها مطلَب كوني وحقّ إنساني مُشَاع لكلّ فرد يَنصبُّ أساسًا على ضرورة ترسيخ الوعي النّوعي والحيوي بتحقيق وبناء هويّة مشتركة ومجتمع عالمي وإنسان عالمي، في أنَّنا أطفال هذهِ الأرض على حدّ تعبير موران، في سياقِ عصرٍ كوكبيّ للعولمة، ولأنَّ الواقع هنا أكثر من مجرّد وحدة ونظام فهُوَ شديد التّنوُّع والتّعقيد والاضطراب. وبالتّالي، من نفس هذهِ الجدليّة تُولد حركة قويّة للعالم إمَّا نحوَ الموت أو الحياة.

الكلمات المفتاحية: إدغار موران ; التّربية ; المعرفة ; الخطأ ; الوهم ; العقل ; اللّا يقين ; العولمة ; الهويّة الأرضيّة.

Abstract :

The rejection of the old versions of education at Edgar Morin has led to the recognition of deficiencies in the system of each education, with its curricula, programs and courses, which we should address and correct, by highlighting its weaknesses and strengths not in terms of teaching skills but in terms of the cognitive content of our children. In order to highlight Edgar Morin's vision, this article aims to clarify two fundamental ideas, which carefully summarize a small part of his philosophy of education, first with regard to knowledge and, second, with earthly identity. Education, which aims to communicate only knowledge, is inadequate, incompetent and even ignorant of the nature, mechanisms and limitations of human knowledge, in its tendency first and foremost to error and illusion. Because the most important thing in education is that we know knowledge and know its limits, what is it? We know that it is a universal demand and a common human right for everyone, focused primarily on the need to promote a qualitative and vital awareness of the achievement and building of a common identity, a global society and universal humanity, that, as Morin put it, we are the children of this earth, in the context of a global age of globalization, Because the reality is more than unity and order, it is too diverse,

complex, and turbulent. Thus, from the same dialectic, it generates a powerful movement of the world either toward death or life.

Keywords: Edgar Morin ; Education ; Knowledge ; error ; illusion ; reason ; uncertainty ; globalization ; earthly identity.

مقدّمة:

وإنّي لَأستخلصُ من عبارةِ روسو J.J. Rousseau:" إنّما يتشكّلُ النّباتُ بالزّراعة، ويتشكّلُ البشرُ بالتّربية" [1] حكمًا إيجابيًّا، بل من أنّ هذا الحكمَ سواءً كانَ إيجابيًّا أم سلبيًّا هُو محفوظٌ لنا، وإنّ الإنسان على الدّوام مُحتاجٌ إلى التّربية، إلى الذّوبان في قواعد السّلوك ونُظُم الأخلاق، وقوانين السّياسة، وتعاليم الدّين، وما وافقَ طبائع المجتمعِ قليلًا أو كثيرًا، ثمَّ بحسبِ ما نجدهُ من توافقٍ بيْننا وبينها. ولكن، كما يقولُ روسو " وكأيِّنْ من إنسانٍ ينسى تربيَتَهُ أو يهدرُها، وكأيِّنْ من إنسانٍ يصُوغُها " [2]. ومن ثَمَّ فإنّ التّربية لَتصبحُ همًّا وغمًّا بسببِ أنّ الإنسان هُو دائمًا مبثوثٌ في الوجود لتحقيقِ الإنسان، كيْ أشرعَ في توحيدِ نفسي مع الكينونات الّتي تُشكّلُ المجتمع، وإنّ المرءَ لا شيء من غيرِ تربية، وإذّاكَ شرطُ الإنسانيّةِ الأغرُّ ومُهمّتها العليا في المقامِ الأوّل والأخير.

وإنّ أوليفيه ربُول O. Reboul إذْ يُثبتُ لا بعكسِ روسو أنّ التّربية هي في معنى الكلمةِ الحصريّ تُساوي الإنسان، وإذا ما كانت التّربية غيرُ ممكنة إلّا بالإنسان، فهُو لا يقصدُ إعادة إدماج هذا الإنسان بالجماعة البشريّة فحسب، وإنّما في محاولةِ العُثور على المعنى الأصليّ للتّربية، في اقترانها بمعنى الفعل والأثر والإنجاز، ولقد بيّنَ ربُول ذلكَ بوُضوحٍ في قولهِ هذا:" لا يُولدُ الإنسانُ إنسانًا: إنّها نقطة تُجمِعُ عليها العلوم الإنسانيّة كلّها. فلا شيء من بينِ ما يُؤلّفُ الإنسانيّة، أي اللّغة والفكر والمشاعر والفنّ وعلم الأخلاق، ولا شيء من كلّ ما سَعت الحضارةُ آلاف السّنين للحصولِ عليه قدِ انتقل إلى جسمِ المَوْلود الجديد، فعليهِ أنْ يكتسبَهُ بالتّربية " [3].

ومشروعُ الإنسانيّةِ هذا، يتضمّنُ إذًا إقرارًا مُتزايدًا بأنّ التّربية يقينًا، يُخالطُها شيءٌ من القيمة، كيفَ لا؟، وهي أحدُ أهمّ إمكانات بناء الإنسان في نطاقِ الزّمن الّذي يعيشُ فيه، في صرحِ العالمِ فيما بعدُ.

ومن طريق الأهمّية الّتي تُوليها التّربية للإنسان، نكونُ إذًا ومنذ البداية قد جئنا على ذكر أهمّية هذا البحث خاصّةً وإنّنا نستطيع أنْ نأتي على شرح هذه العلاقة بين التّربية والإنسان أيضًا عند إدغار موران Edgar Morin [4]. بيْدَ أنّ هناك قناعةٌ راسخة بالنّسبةِ إلينا تؤدّي بنا إلى القول، بأنّهُ لا أحدَ بإمكانهِ أنْ يُنكرَ عليهِ فضلَ التّفكير في الإنسان بنفسِ الطّريقة الّتي أمكنَ لسابقيهِ من الفلاسفة التّفكيرُ بها. وإذْ ليس من مهامّنا ها هُنا أنْ ندفعَ بفحوى هذه الأفكار إلى الظّهور، توسيعُها أو تفسيرُها. بقدرِ ما نريدُ أنْ نتصوّرَ كيفية بناء هذا الإنسان كما تصوّرهُ إدغار موران، وهذا التّصوُّرُ وحدَهُ فإنّهُ يخضعُ لسبعةِ معارفَ ضروريّة لتربيةِ المستقبل، يجب على كلّ تربية أنْ تأخذ بها في كلّ زمانٍ ومكان، بحسب ما يتناسبُ مع خصوصيّة كلّ مجتمع وثقافة، وهذا بيانُها [5]:

- ✓ أنواع العمى المعرفي Les Cécités de la connaissance، لا بُدَّ من أنّ التّربية اليوم كما يلاحظُ إدغار موران هي تربيةٌ فاسدة، تربيةٌ عمياءُ في شأن المعرفة الإنسانيّة برمّتها. بل في شأن الإنسان أوّلًا وقبل كلّ شيء، بسبب الأخطاء والأوهام الّتي تعرّضَ لها الفكر البشري عبر تاريخهِ الطّويل.

- ✓ إصلاح الفكر Reforme de pensée، باتَ من الضّروريّ أنْ تحافظَ التّربية على ذلكَ الحوار القادر على تعليم تَمَثُّل الوحدة والطّابع المركّب للذّات البشريّة، وفي أنّ المعرفة هي معرفةٌ مُؤسَّسة على فهم المشاكل الكلّيّة لا على حسَب المعرفة المجزّأة على المواد الدّراسيّة، وتلك هي المعرفة الملائمة لفكرنا وعصرنا.
- ✓ وبأنّ التّعليم من شأنهِ أيضًا أنْ يعمل على تعزيز الشّعور بالهويّة الأرضيّة Enseigner l'identité Terrienne، بأنّنا أبناء كوكب واحد، وبأنّ الخطر كامِن في الذّاتيّة المتأصّلة فينا نتيجة حصاد عصر العولمة.
- ✓ بمواجهة اللّايقينيّات Affronter les incertitudes، وإنّ اللّايقينُ عرضٌ من أعراض حضارة القرن العشرين ليس بصفتهِ مُتجذّرًا فقط في عمقِ تاريخنا البشريّ، ولكنْ من داخل هذا التّاريخ أيضًا تمَّ إنتاج شيء من اليقين باسم التّقدُّم وقدِ انقلبَ على نفسهِ فتحوّلَ إلى أسطورةٍ كبرى. صحيح إنّ المجتمعات تلجأ إلى التّقدُّم بالوسائل الممكنة والمتاحة لأنّهُ شيء طبيعيّ لحياة أيّ مجتمع، ولكنّهُ يبقى شيئًا لا يقيني أيضًا. وهذهِ العلاقةُ المتلازمة مع التّاريخ هي ما يجعل كلّ شيءٍ خاضعًا وبصورةٍ مباشرة للصّدفة والعشوائيّة واللّامتوقّع، وإنّ هذهِ طبيعةُ الأحداث، علّتها، وخاصّيتُها ولا أحدَ بإمكانهِ أنْ يتحكّمَ فيها حتّى أقوى حاسوبٍ ولا مارِد كما قال بذلكَ موران على لسانِ لابلاس. ومن ناحيةٍ أخرى لا يمكنُ للّايقين أنْ يمارسَ أزليّتهُ في الوُجود، فقط، إلّا لأنّ المستقبل هُو تلك الحلقة المفقودة من عُمر هذهِ الإنسانيّة العصيّة عنِ التّنبُّأ والتّكهُن بما سيأتي أو بما هُو جديد.
- ✓ تعليم الشّرط الإنساني Enseigner la Condition Humaine، على كلّ تعليم إذا ما أراد أنْ يعرف الإنسان معرفةً حقيقيّة أنْ يُسائل وضعهُ في العالم، بفهم تلك الشّروط الّتي ساهمت بشكلٍ أساسيّ في وُجوده (الشّرط الكوني، المادّي، الإنساني)، بأنْ نعترف بطبيعتنا الإنسانيّة وأصلنا المشترك، بأنّنا في كون مادّي وطبيعي، وبفرديّتنا الأصيلة أيضًا الّتي هي منبع كلّ عبقريّة وإبداع.
- ✓ أخلاق الجنس البشري L'éthique du Genre Humain، والمتمثّلة في تعليم الأنثروبو- أخلاقيّة والمكوّنة من ثلاث مصطلحات هي: الفرد / النّوع(البشري)/ المجتمع. وهي أخلاق تراهنُ بالأساس على تهذيبِ إنسانيّتنا، باحترام النّوع البشري في اختلافهِ عنّا في سبيل محاولة التّخلّص من كلّ نزعة فرديّة، من خلال تجسيد أخلاق التّضامن والفهم والأخوّة والمواطنة والتّعدّديّة والدّيمقراطيّة في سياق التّطلُّع دائمًا إلى وحدة بشريّة كوكبيّة.
- ✓ تعليم التّفاهُم/ الفهم Enseigner la Compréhension، خاصّةً وأنّ اللّا تفاهُم أضحى هُو الظّاهرة الوحيدة الّتي تَسم العلاقات بين بني البشر.

وأمّا الآن، سنأتي فقط على شرحِ معرفتيْنِ اثْنتيْنِ من بين هذهِ المعارف: مُشكلة العمى المعرفي ومنْ ثَمَّ نتطرّق إلى مقاربتهِ حول مفهوم الهويّة الأرضيّة، بل إنَّ هذا لا يعني أبدًا تبسيط الطّرح الّذي يُقدّمهُ موران ها هُنا، نظرًا لأنَّ كلّ معرفة جادَّة نحو المستقبل في حقيقة الأمر تحتاج إلى بحثٍ مُستقل.

تساؤلات البحث: وككلّ بحثٍ ذي أهمّية يخصُّ التّربية، هناكَ سؤالانِ أساسيّانِ يمكنُ من خلالهما أنْ نمسك بخيوط هذا البحث، وهما:

1: في ظلِّ التّفسير الجديد الّذي يُقدّمهُ إدغار موران للتّربية، إلى أيِّ مدًى يمكنُ للتّفسير التّقليديّ الّذي يخصُّ التّربية أيضًا أنْ يحافظ على بنائهِ المنطقي وتماسكهِ الدّاخلي؟، أيْ عندما يحاولُ إدغار موران أنْ يدخل في علاقة مباشرة مع هذه التّفسيرات في إطار مُعاودة نقدها وتقييمها بما يتلاءم مع المبادئ الجديدة لفلسفتهِ في التّربية.

2: ومادامتِ العولمة هي ذلك الشّكل الأساسي لحضور مفهوم الأرض – الوطن، هل يمكنُ القول أنّها ما تزال تحمل في ذاتها أمل الاجتماع معًا فوق الأرض، بالنّسبة لذلك الّذي يُسمّيهِ إدغار موران بالهويّة الأرضيّة، كذوات فاعلة ومتفاعلة وقادرة على رسم حياة مُشتركة واحدة، بخلق عالم مليء بالأخوّة، بالحبّ والحنان أيضًا؟.

فرضيّات البحث: يقومُ هذا البحث على تصوُّرِ فرضيّتينِ أساسيّتيْنِ مفادُهما:

- ✓ على التّربية أنْ تُبيِّن أنَّ كلّ معرفة إنسانيّة هي معرفة مُعرّضة لخطر الوُقوع في الخطأ والوهم.
- ✓ على التّربية أنْ تنطلق من فكرة أنّ الأرض– الوطن هي عامِل أساسيّ لتشكيل هويّتي من طريق شعور بالوِحدة الإنسانيّة/ العالميّة.

منهجيّة البحث: في بحثنا هذا نسعى إلى الاستفادة قدرَ الإمكان من مُجمَل ما كتبَهُ موران فيما يخصُّ مفهومَهُ عن التّربيّة، والعناصر الأساسيّة المشكِّلَة لهُ، فيما يتعلّقُ رأسًا بأحدِ أهمّ كتُبِهِ في التّربية والموسوم ب:" تربية المستقبل: المعارف السّبع الضّروريّة لتربية المستقبل Les sept savoirs nécessaires à l'éducation du futur "، من خلال محاولة بسط تلك النّصوص الّتي فيها من العبارة القويّة، والّتي لها علاقة مباشرة بموضوع هذا البحث، من طريق عرض هذهِ النّصوص ومُناقشتها تحليلًا وتركيبًا.

أهداف هذا البحث: يمكنُ أنْ نُجمل هذهِ الأهداف في مايلي:

- ✓ التّعرُّف على البحث إنطلاقًا من مصادرهِ المعرفيّة الأولى عند إدغار موران.
- ✓ محاولة إلقاء الضّوء على الإسهام الفلسفي الغربي في مجال التّربية.
- ✓ فتح آفاق جديدة للبحث في مجال الدّراسات التّربويّة بشكلٍ عامّ، والعربيّة بشكلٍ خاصّ.

هيكلة البحث: حتّى نتمكّن من الإجابة عن التّساؤلات المطروحة، فقد قُمنا بتقسيم هذا البحث إلى عُنصُرينِ وهُما:

- ❖ لازمة الخطأ المحايثة للمعرفة، أو في مشكلة العمى المعرفي.
- ❖ الهويّة الأرضيّة، على إيقاع جديد لعصر العولمة.

المبحث الأول: لازمة الخطأ المحايثة للمعرفة، أو في مشكلة العمى المعرفي

كلّ معرفةٍ يحوزُ عليها البشر فهي معرفةٌ مُعرّضة لخطر الوُقُوع في الخطأ والوهم erreur et illusion لا محالة، وإنّ المهَمَّة الأساسيّة الّتي تضطلعُ بها التّربية هي محاولةُ الكشف عن مصدر هذهِ الأخطاء والأوهام، على حدِّ تعبير إدغار موران:" لا يُمكن اعتبارُ المعرفة أداةً جاهزة للاستغلال يمكنُ استعمالها ما لم نفحص طبيعتها، لذلك لا بُدَّ من أن نرى في معرفة المعرفة ضرورةً أولى من المفترض أنْ تكونَ ضربًا من الاستعداد لمواجهة إمكانيات

الخطأ والوهم الدّائمة الّتي ما تنفكُ تُشوِّشُ التّفكير البّشريّ، لأنّ المقصود هُوَ تمكينُ الفكر، كلُّ فكرٍ من أنْ يُعدَّ العدَّة لكفاحهِ الحيويّ من أجلِ التّبصُّر. ولذلك، باتَ من الضّروريّ أنْ نُقحم في التّعليم دراسة الطّابع العقليّ والذّهنيّ والثّقافيّ الّذي تتّسمُ به المعارف البشريّة ونُطوّرُها " [6].

ولا بُدَّ من أنَّ ما يزيدُ من أهمّيّة المعرفةِ فعلًا بالنّسبة لكلِّ مُتعلّمٍ، هُوَ قيمتُها، ولكنَّ سبنسر H. Spencer زادَ أيضًا من تفصيلِ هذهِ الحقيقة إلى جانبِ إدغار موران قائلًا:" واعلَم فوق ذلك أنَّ لكلِّ معرفةٍ تُكتَسَبُ قيمَتيْن: قيمتُها كحقيقةٍ مُستفادة، وقيمتُها كغذاءٍ للذّهن يقومُ به صلاحُهُ ويُكمِلُ نماؤَهُ" [7]. وعلى هذا الأساس، فإنّ موران يحدّدُ أنواع الخطأ والوهم فيما يلي:

المطلب الأول: الأخطاء الذّهنيّة Erreur intellectuel

وهي في معظمها من بينِ ما يتضمّنهُ عمل الذّاكرة وعمل الذّات. الذّاكرةُ، فيما يطالُها من عمليّات الخلط والتّشويه، وفي تمييزها بين الواقع والخيال، الحُلم واليقظة، الذّاتي والموضوعيّ من جهة. والذّات، في تشكيلها عالمًا آخر مليء بالرّغبات والأحلام والأفكار والصُّوَر والاستيهامات، في مُحاولة تخيُّل حياةٍ أخرى جديدة كلّ الجدّة عن الحياة السّابقة من جهةٍ أخرى.

وإنّ الذّاكرة ها هُنا، هي مصدرُ الوهمِ والخطأ، وكلُّ ما في مُستطاعِ الإنسان أنْ يدفعَ بذاكرتهِ إلى محوِ بعض الذّكريات الّتي أثّرت على حياته في بعضِ لحظاتها الماضية، في مُقابلِ الاحتفاظ بتلك الإيجابيّة، وما من أحدٍ سيُنْكِر أنّ الإنسان عاشَ ولا يزالُ وسيُعايِشُ ذكرياتٍ من خلقهِ هُوَ. وقد لخّصَ إدغار مُوران نشاط الذّاكرة في عبارةٍ تُكتبُ بماءِ الذّهبِ كما يُقال، تعكسُ باستمرار جدليّة حياة هذهِ الذّاكرة وموتها: " إنّ ذاكرةً لا تتجدّدُ بالتّذكُّر محكُومٌ عليها بالموت. ولكنْ يجبُ أنْ نعلمَ أنَّ كلَّ تذكُّرٍ قد يُحيِي الذّاكرة بقدرِ ما قد يقتُلُها" [8].

وليس غريبًا أيضًا، أنْ يُشاهد الإنسانُ العالمَ بمظهرٍ فريدٍ ومُختلف، فإنّهُ يراهُ من الدّاخلِ أوّلًا، بعيْنِ الذّات وهي تُعيدُ بناءَ ذاتها داخلَ هذا العالم، ووسطَ أشيائهِ. وفي كلِّ مرّةٍ تحتاجُ فيها الذّاتُ إلى تبريرِ وُجودها في العالم بالتّمركُز على ذاتها فهي تميلُ إلى" اعتبارِ الآخر مصدرَ الشّر " [9]، ومن ثَمَّ فإنّهُ ليسَ بمقدُورِ هذهِ الذّات الكشف عن الأخطاء المسؤولة عنها. وإذّاكَ من فرطِ الوَهمِ أمامَ العالم، وهُوَ يُخلّفُ وراءهُ عناصرًا مُختلفة، وصُوَرًا متنوّعة، وانطباعًا خاصًّا في شكلِ الإدراك بالذّات، في أنّ الذّات الإنسانيّة تنفصلُ في لحظةً ما عن ذاتها، لتضيعَ في وهم الشّعور بالعظَمة المتأصّل في كلّ إنسانٍ منّا (الكذب على الذّات Self- deception).

ولا بُدَّ منْ أنّ البشرَ كما نعرفُ مُتّفقونَ على تحديدِ أهمّيّة الذّكريات والدّور الّذي تلعبُهُ في حياةِ كلِّ فردٍ منّا.

وإنّ ما نخلُقُهُ، يُعَدُّ وَهمًا كما بيَّنَ ذلك موران، يتموضعُ على رأس الحياة السّيكولوجيّة لكلّ شخص، فحسبَ برغسون H. Bergson كأنّهُ هُوَ، تلك الذّكريات الّتي سبقَ لنا أنْ شاهدناها، وحتّى سمعناها، أو تلفّظناها، في أنْ نعتقد أنّنا عشناها في مراحلَ سابقة من حياتنا، في إعادة تكرار الماضي، وفي ارتباطِ وتماهي ما نُكَرّرُ ونتخيّلُ بمشاهدَ تقعُ خارجَ نطاق الزّمن الّذي نحنُ فيه، باللّحظة واللّحظات الحاضرة(رؤية مُزدوجة diplopie)، وحينئذٍ يبلغُ الوهُمُ مداهُ، "يبلغُ أحيانًا حدًّا من الكمالِ يحملُنا، في كلّ لحظةً، وطيلةِ دوّامة، على

الاعتقادِ بأنّنا نُوشِكُ أنْ نتنبّأ بما سيقعُ: كيف لا نعرفُهُ، ونحنُ نُحسُّ أنّنا قد عرفناهُ ؟" [10]. بل لا يجبُ مُقارنتُهُ أبدًا، فيما يتعلّقُ بأمراض الذّاكرة.

ولكنْ، أيُّ حالةٍ هذهِ الّتي يرى فيها الإنسانُ العالمَ لإعطاءِ مشهدٍ ما خاصّية الذّكرى، كالّذي يراهُ النّائمُ في منامهِ، رؤيًا تأوّلها برغسون، في أنْ نُصبح فعلًا قريبِينَ من حالة الازدواجيّة، حدّ التّخلي عن الذّات، ولأنّ كلّ ما يحدث في حياتنا أثناء الأحلام، قريب ولكنْ بدرجةٍ أقلُّ منها إلى الوهم دونَ أنْ يكونَ كذلكَ، مشروعًا مُكتملًا أو حقيقيًّا، حيثُ يدخلُ الإنسان في حالة ما يُسمّيهِ برغسون بوَهم الاستكشاف أو التّعرف الخاطئ [11]، دُونمَا سبيلٍ إلى تركهِ. وبعد قراءةِ ما قدّمهُ برغسون بهذا الصّدد، استوقفنا هذا المقطع الّذي يقولُ فيه:" وليس من النّادرِ أنْ نُشاهدَ العالم الخارجي بمظهرٍ فريد، كما يحدُثُ في المنام، فنُصبحُ أغرابًا عن ذاتنا، قَريبِينَ من حالةِ الازدواجيّة، بحيثُ نرى كمُجرّدِ شُهودٍ ما نقولُ وما نفعلُ. وهذا الوهمُ الأخيرُ، في أقصى مداهُ، ولدى بلوغهِ حالةَ التّخلي عن الذّات لا يرتبطُ بالضّرورةِ، بالاستكشاف الخاطئ، ولكنّهُ مع ذلك يتبعُهُ ويلحقُهُ " [12]. ليّتضحَ لنا فيما بعد أنّ الفرق بين المرء في حالة المنام أنّهُ وحدهُ هو الّذي اكتشفَ وأحسّ بالوهم والخطأ، أيْ في القدرة على التّعرُّف الخاطئ، ومُقاومته والتّخلّصِ منهُ. في حين أنّ المرء عند موران، كما لو أنّ قوّةً في العالم لا تستطيعُ إيقافَ الذّات عمّا تراهُ وتحسُّهُ لوحدها في العالم.

وأخيرًا، نكونُ قد وضّحنا أيضًا الفُرُوق بين التّعرّف الخاطئ عند كلٍّ من الإنسان السّوي، وغير السّوي، في أنّ التّعرّف الخاطئ عند الأوّل عارض، وشخصيّ، " وسيلة تخترعُها الطّبيعة لكيْ تُمَوْضعَ في مكانٍ مُحدّد، ولكيْ تُحصرَ ضمنَ بعض اللّحظات، ولكيْ تقلّصَ إلى المدى الأتفه شكلَ القصور، الّذي يمتدُّ ويتوزّع على مُجمل الحياة السيكولوجيّة فيُشكّلُ نهكًا (بسيكاستيني)" [13]. في حين أنّ التّعرّف الخاطئ عند الثّاني تطوّر إلى حالةٍ مرضيّة مُعقّدة تستدعي تدخُلًا طبّيًّا، إلى خبَلٍ عقليّ فيما يصفهُ النّاسُ بالجنون. كذكرى: جنسن، وكرابيلين، وبناتِلّي، وساندر، وأنجَل، بينَ أنْ نكون أقلّ وعيًا أو أكثر وعيًا، فيما سمّاهُ برغسون بالوعي النّاقص للإدراك Subconscience.

ولننظُر قليلًا في مفهوم حياة وموت الذّاكرة كما طوّرهُ موران من زاوية ميلان كونديرا M. Kundera، إذْ ليست الذّاكرةُ عندهُ بشيءٍ حقًّا. إنّها أشبهُ بظلٍّ بلا معنًى ولا وزن، ولأنّ خفّةَ الظّل هي دائمًا ما يُميّزُ طبيعة الأشياء في انعكاسها على سطحِ النّور، فإنّهُ " لوْ قُدّرَ لكلّ ثانيةٍ من حياتنا أن تتكرّرَ مرّاتٍ لا حصر لها، لكُنّا مُعلّقينَ على الأبديّة مثلما عُلّقَ يسوعُ المسيح على صليبهِ. هذه الفكرةُ فظيعة. ففي عالم العوْد الأبدي، كلّ حركةٍ تحملُ ثقلَ مسؤوليّةٍ لا تطاقُ" [14].

وإنّ كلّ محاولة لاستحضار التّجارُب السّابقة من حياتنا، من شأنها ألّا تعود، بل في أنّ ما عشناهُ قد يتكرّرُ مرّةً تلوَ الأخرى، حيث نجدُ أنفسنا مأخوذينَ أمامَ بعضٍ من صُوَرِ الطّفولةِ مثلًا... . إنّ فكرة العوْد الأبدي عند كونديرا والّتي مهّد لها فريدريك نيتشه F. Nietzsche فكرةٌ غامضة جدّا، عصيّة على الفهم، فكرة ثقيلة ثِقَلَ ما نحملُ من أحمالٍ، " وإنّ أكثرَ الأحمالِ ثقلًا يسحقُنا، يُلوينا تحت وطأتهِ ويشدّنا نحو الأرض " [15]، في حين يصيرُ الكائنُ أشدَّ خفّةً حينما يتخلّصُ من أحمالهِ. لكنّها مع ذلكَ فكرةٌ مُثيرة وجذّابة، في أنّ كلّ شيء يمكنُ أن يتغيّر،

لو أنّ المعرفة الّتي نُحصّلُها من الذّاكرة أو من العالم الّذي هُو أمامي بالنّسبةِ لإدغار موران كانت ستتكرّرُ بلا نهايةٍ في سياقِ العوْد الأبدي ...!. ومن ثَمَّ علينا أنْ نختار المعرفة الثّقيلة بالأخطاء أم الخفيفة؟.

المطلب الثّاني: الأخطاء المعرفيّة Erreur de connaissance

تشملُ المعرفة الإنسانيّة عند إدغار موران النّظريات والمذاهب العلميّة، وهي أيضًا مُعرّضة لخطر الوُقوع في الخطأ والوهم، فإمّا أنّها تقومُ بمقاومتهِ أو بتعديلِ نسقها الدّاخلي في قَبُولها الخضوع لامتحان القابليّة للتّكذيب والتّزييف لاكتشاف مواطن الضّعف والقوّة الموجودة فيما نُخضعُهُ للاختبار، أو بطرحِ كلّ ما لا يتلاءمُ معها خارجًا حفاظًا على هويّة النّسق الدّاخليّة، أو بدمجهِ معها.

فأمّا النّظريّة العلميّة فإنّها تحملُ صفة التّفتّح، " إنّها تهدمُ الواقع كيْ تعيش، إنّ نوع تنظيمها البيئي الذّاتي المفتوح هُو الّذي يمنحُ النّظريّة مقاومةً تكوينيّة للوثوقيّة والعقلنة، غيرَ أنّ هذا النّوع المفتوح مُرتبط بشكلٍ مُتوارٍ بالقواعد التّعدّديّة للوسط الّذي يُغذّيها، أيْ المجتمعات/ الجماعات الفلسفيّة أو أكثر من ذلك العلميّة، إنّ المجال الفلسفيّ والمجال العلميّ هُما مجالان لوجود ديمقراطيّ/ ليبراليّ بالنّسبة إلى النّظريات. بمعنى، أنّ النّظريّة تقبلُ النّقد في إطارٍ فلسفيّ، لكنّها تقبلُ مبدأ فسادها البيولوجيّ في الإطار العلميّ: إنّ النّظريّة المفتوحة هي النّظريّة الّتي تقبلُ فكرة موتها الخاصّ" [16]. بخلافِ المذهب الّذي يحملُ صفة الانغلاق والصّلابة والدّوغمائيّة الّتي رفضتها الفلسفة العلميّة،" إنّ المذهب مُصفّح ضدّ الاعتداءات الخارجيّة، كلّ واحدٍ من مفاهيمهِ محمّي مثل النّواة، ترابُطاتُه الدّاخليّة صلبة، إنّ المذهب وُثوقيّ بالطّبيعة، والوُثوقيّة هي بالضّبط الجمعُ بين الصّلابة والتّصفيح والادّعاء المذهبي، يمتلكُ المذهب وِحدةَ الحقيقة، ويدّعي امتلاك كلّ الحقوق، إنّهُ أرثوذكسيّ دائمًا، وما هُو غريب يُعتبرُ بطبيعة الحال عدُوًّا فيُرفَض، يتمُّ تحويلُ الحجج المناقضة إلى دلائل ضدّ المعترضين، ... إنّ المذهب في حالة حركة دائمة، ويُلهبُ حماسَ أتباعهِ دونَ أنْ يُوقفهُ، يهاجمُ بعنفٍ، يُهاجم بلا هوادةٍ النّظريّات "[17].

المطلب الثّالث: أخطاء العقل Erreur de la raison

ولا بُدَّ من الإشارة إلى أنّ العقل يقومُ بتدميرِ ذاتهِ، لأنّهُ يملكُ استعداداتٍ تمكّنهُ من التّحوّل إلى تبريرٍ عقلانيّ. بيْدَ أنّ العقلانيّة من منظور إدغار موران هي الطّريق الأفضل لمواجهة خطر الوُقوع في الخطأ، لأنّها هي من يقوم بفعل التّقويم والمراقبة، في مُحافظتها على الحوار مع اللّا عقلي إنّ العقلانيّة هي الّتي " تعترفُ بأهمّيّة الوجدان والحبّ والتّوبة، العقلانيّة الحقيقيّة هي الّتي تعي جيّدًا حدود المنطق والنّزعة الحتميّة والنّزعة الآليّة. إنّها تعلمُ جيّدًا أنّ العقل الإنساني لا يُمكنهُ معرفة كلّ شيء وأنّ الواقع يُجبَلُ بالألغاز. وهي تتفاوضُ وتتحدّث إلى اللّا مُعقلن، والغامض، وغير القابل للعقلنة. بذلك فهي ليست فقط نقديّة بل تقومُ أيضًا بنقدِ ذاتها. باختصار، إنّنا نتعرّف على العقلانيّة الحقيقيّة في مدى قُدرتها على الاعتراف بحدودها "[18].

ومن ثَمَّ فإنّ التّبرير العقلاني من جهتهِ سيظلُّ دائمًا مُغلقًا على ذاتهِ، على بنائهِ المنطقي الخاصّ بهِ لأنّهُ يُشكّل أحد أهمّ منابع الخطأ والوهم، بقدرِ ما العقلانيّة مفتوحة على ذاتها، على ما يُعارضُها، بناءً للنّظريّات، وبإعادة فحص مدى مُلاءمتها وتناسُقها مع الأفكار المشكّلة للنّظريّة، ونقدًا لأخطاء وأوهام المذاهب والمعتقدات.

يُدعِّمُ إدغار موران رأيهُ هذا بمثالٍ واقعيّ، مَفادهُ أنّ العقلانيّة ليست حكرًا على التّقنيّين في حدودِ تخصُّصهم، أيْ حكرًا على الغرب دون الشّرق، وأنّهُ في قلب العقلانيّة الغربيّة يوجدُ ذلك الحضور القويّ للتّبرير العقلاني، في تأكيد وتعزيز الإيمان بأسطورة القوّة والتّقدّم والعقل. ولكنْ كما يقولُ موران يجبُ" أنْ نكون عقلانيّين بشكلٍ حقيقيّ عندما نعترفُ بوُجود التّبرير العقلانيّ في قلب عقلانيّتنا وبوُجود أساطيرنا الخاصّة ومنها أسطورة القوّة الخارقة للعقل وأسطورة التّقدّم الحتمي " [19]. ولا بُدَّ من الاعتراف أيضًا بأنّ كلَّ مجتمع حامل لشيء من العقلانيّة في كيفية تعامُله مع واقع الحياة اليوميّة الّذي فرضَ عليهِ ابتكار الأدوات، وطُرُق صيد الحيوانات ومعرفة النّباتات، بل في أنّ هذهِ تُمثّلُ أسمى درجات العقلانيّة. إلى جانب تفسير الحياة عبر مُختلف أشكال السّحر والأسطورة [20].

المطلب الرّابع: الضّلالات المنظوماتيّة

يندرجُ مفهوم المنظومة عند إدغار موران تحت مُسمّى " النّظام في التّصوُّرات الحتميّة ومفهوم المادّة في التّصوّرات المادّيّة ومفهوم الرّوح في المذاهب الرّوحانيّة ومفهوم البنية داخل التّصوّرات البُنيويّة" [21]، وكلّ ما يتعارض مع هذه المفاهيم يتمُّ إقصاؤُه وإلغاؤُه بعيدًا عن النّظريّة والخطاب، وهذا ما ينبغي للتّربية أنْ تَنتبِهَ إليه، إذْ أنّ الخطأ لا يُمارسُ البتّة بأدوات الاختبار التّجريبي، أو حتّى بمحاولة الكشف عن مدى الانسجام المنطقي للنّظريّات، ولكنّهُ يقعُ أيضًا في " قلب المنطقة اللّا مرئيّة للمنظومات"[22]. بإنتاجها المفاهيم المضادة: كاللّا نظام.

إنَّ المنظومة أو البراديغم تتكوّن من مجموعةٍ من المفاهيم المترابطة والمتكافلة، تُرتّبها علاقاتٌ منطقيّة من خلال بديهيّات ومُسلّمات ومبادئ تنظيميّة ضمنيّة، على أنّ المنظومة أيضًا هي من يُنتج أطروحات لتُصبح فيما بعد بمثابة حقائق، تُنتج هي الأخرى تنبُّؤات فيما يتعلّق بالوقائع والأحداث الّتي نتوقّع ظهورها مُستقبلًا [23].

وعلى هذا الأساس يُحدّدُ إدغار موران مفهومهُ للمنظومة فيما يلي [24]:

- ✓ تعيين وانتقاء المفاهيم المركزيّة للمعقوليّة، كمفاهيم النّظام والرّوح والمادة والبنية.
- ✓ تعيين العمليات المنطقيّة الرّئيسيّة، كعمليات الإقصاء/ الدّمج، الفصل/ الوصل، التّضمُّن/ النّفي. وكلّ منظومة كما يقول موران تمنح الأفضليّة لعملية على أخرى، كتفضيل الفصل على الوصل فهي تمنح الصّلاحيّة والكونيّة للمنطق الّذي اختارتهُ، وتمنح للخطابات والنّظريات الّتي تراقبها طابع الضّرورة والحقيقة.

صياغة مثال: يقترحُ إدغار موران المثال الآتي:

هناك منظومتانِ اثنتان وهُما، المنظومة الطّبيعيّة / المنظومة الإنسانيّة، وكلّ منظومة تحاول أنْ تُدمج أو تفصل عنها إمّا المبدأ الطّبيعي وإمّا المبدأ الإنساني، في إطار منظومة أخرى هي منظومة التّبسيط والاختزال La simplification et réduction، من خلال تحديد عمليّة منطقيّة واحدة هي الفصل La séparation.

ولقد كتبَ إدغار موران مُنوِّهًا بشدّة على هذا الأمر قائلًا:" تدمجُ المنظومة الأولى الإنسان داخل الطّبيعة وكلّ خطاب يدخل في إطار هذهِ المنظومة إلّا ويجعل من الإنسان كائنًا طبيعيًّا ويقول بفكرة الطّبيعة الإنسانيّة، في حين تفصل المنظومة الثّانيّة الإنسان عن الطّبيعة وتُعيِّن ما يُميّز الإنسان عبر نفي فكرة الطّبيعة. تتوحّد هاتانِ المنظومتانِ

المتعارضتانِ في منظومةٍ أعمق، هي منظومة التّبسيط الّتي تفرض – في مواجهة التّعقيد المفاهيمي – إمّا الاختزال (اختزال الإنسانيّ في الطّبيعيّ)، أو الفصل(بين الإنسانيّ والطّبيعي.)" [25].

وإذًا في كلّ ثقافة توجد منظومة مُهيمِنة ومُسيطرة، تطرح رؤية خاصّة بها من قلبِ تنظيمها الدّاخلي، تُنشئ المفاهيم، وتُوجّه النّظريات والخطابات والمذاهب، وكلّ منظومة إمّا أنْ" تلعبَ دورًا تنويريًّا أو تعتيميًّا، فهي تكشف وتحجب. في قلبها إذًا تمارسُ لعبةَ الحقيقة والخطأ " [26].

شأنها في ذلك كما يؤكّد موران شأنْ المنظومة الدّيكارتيّة الّتي فرضت نفسها لمدّة طويلة من الزّمن في أوروبا القرن السّابع عشر، والّتي قامت بفصل عالم الذّات عن عالم المواضيع بوصفِ الأوّل لا يقدر على شيء سوى على طرح الأسئلة المتعلّقة بالإنسان، بمعنى حياته والغاية من وُجوده، عن هموم الموت، وعن العلاقة بالآخر أيضًا، أمّا الثّاني من طريق تفسير موضوعي للأشياء والكائنات فإنّهُ يهتم بالملاحظة والتّجربة، بجعل الإنسان جزءًا من عالم الطّبيعة والمادّة.

المطلب الخامس: لا يقينُ المعرفة Incertitude de la connaissance

هل نحنُ قادرين على المعرفة من طريق معرفتها، إنتاجها، وبنائها أم لا؟. ومن طريق التّحكّم في لا يقين هذهِ المعرفة أيضًا بمعرفة حدودها؟، هذهِ الحدود الّتي تطرح علينا في كلّ مرّة إشكالية عدم اكتمال المعرفة البشريّة ونُقصها، فإنّ " الرّغبةَ في تصفيةِ اللّا يقين قد تظهرُ لنا عندئذٍ كمرضٍ يعتري أفكارنا وعقولنا، وكلُّ مسيرٍ نحو اليقين الأكبر لن يكونَ سوى بذاءةً مُشينة " [27]. وإنّ وصفًا للّا يقين بحجمِ هذهِ الدّقة عند إدغار موران، يؤدّي بنا على وجهِ التّحديد إلى الوعي بحدود المعرفة، هذه الحدود نفسُها باعتبارها طريقًا أوّلًا للكشف عن اللّا يقين، عن مصدر الأخطاء والأوهام والاختلالات والتّناقضات الّتي تستحوذ على معتقداتنا وأفكارنا.

ففي الوقت الّذي تمثّل فيه حدود المعرفة نهاية الطّريق فإنّ اللّا يقين باعتبارهِ مصدر خطأ يهدّد معرفتنا، هُو بداية أخرى جديدة، بالأحرى هُو المكسب الكبير بالنّسبة للمعرفة. وهكذا فإنّ المعرفة بالذّات تتضّمن في داخلها علاقات حوار وتحاوُر مع اللّا يقين، ومن ضِمن هذا التّحاوُر تنشأُ المعرفة وتنمُو وتتطوّر كما يقولُ موران. بهذا المعنى فإنّ مشكلة لا يقين المعرفة لا يمكن أنْ تزول أو لا يمكن حلُّها إلّا بواسطة اليقين ذاته، وإذْ ليس من الصّعبِ علينا إذًا أن ننتقل إلى مستوى أعلى في المعرفة، أيْ من المعرفة إلى معرفة المعرفة. من حدود المعرفة الضّيقة كما يقول موران الّتي كنّا نعتقد أنّها صحيحة وغير محدودة إلى معرفة تحمل معها إمكانيّة بناء معرفة أخرى متطوّرة، يستطيعُ العقل المِشكاة من خلالها أنْ يُنعِم النّظر في مبادئه وقواعده ومعاييره [28]. وهُنا يصوغ إدغار موران كلامًا جميلًا بهذا الصّدد يقولُ فيهِ:

" ليس اللّا يقينُ سرطانًا يقضمُ المعرفة فقط إنّهُ خميرتُها: فهي الّتي تدفع إلى الاستكشاف والتّحقّق والتّواصل والتّفكير والابتكار. اللّا يقين هُو في آنٍ الأفق والسّرطان والخميرة والمحرّك بالنّسبة للمعرفة. فهذهِ تعملُ أيضًا وتتقدّم وتتعارض بالتّعارض / أو التّعاون مع اللّا يقين " [29].

صحيح، قد يكون التّعرف على حدود المعرفة ضروريًّا لصلاح أفكارنا ونظريّاتنا، ولكنّهُ ليسَ أكثر أهمّية من تلك الشّروط الّتي ينبغي على التّربية أنْ تُوفرها من قبيل" شروط بيو–أنثروبولوجيّة(قدرات الدّماغ/ الفكر

البشريّ)، وأخرى سوسيوثقافيّة(الثّقافة المفتوحة الّتي تسمح بحوار الأفكار وتبادُلها)، وشروط فكريّة(النّظريات المفتوحة) إذا ما أردنا أنْ نطرح التّساؤلات الحقيقيّة أيْ التّساؤلات الأساسيّة حول العالم والإنسان والمعرفة ذاتها " [30]. حتّى يتمكّن الأفراد من الآن فصاعدًا من فضّ الصّراع الدّائم من أجل الوُضوح كما يقول موران، لأنّهُ على ما يبدُو لم تعُد المعرفة معرفةً تدور داخل فلكها الخاصّ بها، في أنْ تكون مجرّد مُشكلة ذهنيّة أو فكريّة لأيّ ببساطةٍ شديدة قد أنتجُ أفكارًا باستطاعتها أنْ تتحكّمَ بي وتُخضعني لمنطقها السّلطوي، ومن ثَمَّ فهي تنتشر وتسود في الواقع وتمارس فعلها الحقيقيّ فيه بدون أدنى قدرة على مقاومتها أو حتّى رفضها، وهذا ما يُطلق عليهِ موران ها هُنا اسمَ الاستحواذ، وإنَّ " المعتقدات والأفكار ليست فقط إنتاجات فكريّة ولكنّها أيضا كائناتٌ فكريّة تتمتّعُ بكاملِ الحياة والقوّة. بهذا المعنى فهي قادرة على أنْ تستحوذ علينا " [31]، لِتمنحنا إمّا الحبّ أو الكره أو العنف أو القتل. ولكنّها الآن– أيْ المعرفة– تُشكّل " قضيّة أنثروبولوجيّة وسياسيّة واجتماعيّة وتاريخيّة "[32] بسبب ما أنتجهُ الفكر البشري من أوهام وأخطاء على مدى فترات زمنيّة متقاربة ومتباعدة.

فإنّ من مهامّ التّربية في هذهِ الحالة، أنْ تبدأ التّفكير لا فيما يتعلّق بالأسئلة حول المعرفة بحدِّ ذاتها. ولكنْ، لأنَّ هذهِ الأسئلة قابلة للتّجدّد باستمرار، وقابلة لأنْ تصحب معها أسئلة تخصّ الإنسان والعالم أيضًا، لا لشيء، سوى لإعطاء إحساس قويّ بأنّ ما من فكرةٍ أو نظريةٍ فلسفيّة أو علميّة تكونُ واضحةً وُضوحًا تامًّا أو صحيحةً حدَّ اليقين، في حين أنّنا بحاجةٍ ماسّةٍ إذًا إلى الحذرِ الشّديد أيضا ممّا تُنتجهُ أفكارُنا، علينا أنْ نراقب هذهِ الأفكار لتفادي كلّ نزعةٍ مثاليّة أو ذاتيّة أو مُغلقة على ذاتها، وبشكلٍ أعمّ كما يقول موران" علينا توظيف لعبة الإخضاع المتبادل، أيْ كونُنا نراقب أفكارنا بقدرِ ما تراقبنا، في أُفق تحويل هذا الإخضاع المتبادل إلى تكافُل وتعايُش "[33]. لأنّ كلّ فكرة ناشئة قد تخضع لاحتمالات الوُقوع في الخطأ إمَّا بواسطة: الحضور القويّ للهُو والنّحن داخل خطابنا (الكذب على الذّات)، أو بسبب الأخطاء النّابعة من الخارج الثّقافي والاجتماعي، أو بسبب تلك الموجودة في أجود أدواتنا المعرفيّة، والّتي تجعل العقول تنخدع حول نفسها بنفسها [34]. ممّا قد يعيق تحديد المعرفة وتصويبها، أو يمنع عنها أنْ تكون مُستقلة بذاتها عن باقي المعارف الأخرى من طريق محاولة القبض على الحقيقة، وممارسة التّأمّل والنّقد والفحص الذّاتي لعقلانيتنا، في أنْ تكون أوّلًا وأخيرًا معرفة مُنفتحة على التّعقيد.

المبحث الثاني: الهويّة الأرضيّة، على إيقاع جديد لعصر العولمة

تسعى هذه الصّيغة إلى الإشارة إلى ما هُو جديد وإبداعي بالنّسبة إلى الوضع في الصّيغة الكلاسيكيّة للتّربية ليسَ بما تحملهُ في ذاتها من تناقضات وتعارُضات وأوهام كما أشرنا سابقًا، ولكنْ بما يمكن لعصر العولمة أنْ يُثيرهُ من تساؤلاتٍ عن معنى الهويّة الإنسانيّة في علاقتها بالأرض والآخر. وهذا ما يعني أنّ هويّتي ليست مُستقلة بذاتها بعدُ وستظلُّ مفتوحة على إمكاناتٍ واحتمالاتٍ أخرى. إنّها عبارة عن حركة نحو الأرض بما تمثّلُهُ من عراكٍ دائبٍ مع نُظرائنا من البشر.

بالنّسبةِ لمصطلحُ الهويّة الأرضيّة L'identité Terrienne ستكونُ التّربية ممكنةً فقط إذا سمحت لنفسها بتسويَة وضع الإنسان على الأرض، بإعادتهِ إليها، وإذا ما تمكّنت التّربيةُ من تعزيز وتفعيل العلاقة مع الأرض الّتي نحنُ عليها فهي بذلك تعملُ على تعزيزِ مفهومنا عن المواطنة الأرضيّة (العالميّة)، والهويّة المشتركة لا كفرنسيّين، أو

إنجليز، أو هنود، أو جزائريّين، سُود أو بِيض ...، لا كجماعات عرقيّة وأقلّيات دينيَّة ولغويّة مُتفرّقة، بل كمواطنين بشر على أرضٍ واحدة، وهُنا يستطردُ إدغار موران شارِحًا في نصٍّ مُثير من كتابهِ تربيّة المستقبل هذه العلاقة بين الأرض / الوطن والبشر قائلًا:

" علينا أنْ نتعلّم كيف " نكون هنا " فوق الكوكب. ونعني بقولنا أن نكون هنا، أنْ نتعلّم كيف نعيش، كيف نتقاسمُ الأشياء بيْننا، وكيف نتواصل، وكيف نتوحّد فيما بيْننا. هذا شيءٌ نتعلّمُهُ فقط في، ومن خلالِ ثقافتنا الخصوصيّة، بيْنما يتعيّنُ علينا من الآن فصاعدًا أن نتعلّم كيف نعيش، وكيف نتقاسمُ الأشياء، وكيف نتواصل، وكيف نتوحّد فيما بيْننا، باعتبارنا أُناسًا ينتمُون لكوكب الأرض. لا يتوجّبُ علينا فقط أنْ ننتمي لثقافةٍ ما، بل علينا أن نشعر بوُجودنا ككائناتٍ أرضيّة، علينا أن نطمح ليس نحو السّيطرة على الأرض، بل نحو توفير سُبُل العيش فيها، ونحو تحسينها، ونحو فهمِها " [35].

يتضمّنُ هذا المسعى النّبيل والزّعمُ الأمينُ لموران والّذي لا ينبغي رفضُهُ، بل في أنْ يُصبحَ بمثابةِ عقيدةٍ خاصّة وإيمانٍ راسخٍ في قلبِ كلِّ شخصٍ يتحدَّرُ من قانُونهِ هُوَ، وليس مُجرّد مسألة تتعلّق بمصالح عُليا لمجتمع ما أو دولةٍ ما، أو فئات تعمل لصالح جهات حكوميّة رسميّة أو غير رسميّة، أنَّ البشر في الواقع هُم أكباش فداء، أو ضحايا تمَّ استخدامُهُم لحاجةِ بشرٍ آخرين، لأغراضٍ نفعيّة وغائيّة في العالم. وإنَّ القرن العشرين ودُخول عصر الكوكبَة يُصبحُ هُوَ نفسُهُ من يُساهمُ بأكثرِ من طريقةٍ مشروعة وغير مشروعة في تأكيد هذهِ الحقيقة المريرة. إنَّ نموذج الحضارة التّقنيّ الّذي قامَ عليهِ الغرب أوْرثَ العالم بمَن فيه مشاكلًا عدّة، وإنَّ ملايينَ البشرِ اليوم يُعانُون من مخاطرِ الحروب، والأسلحة النّوويّة الّتي سمَّمت الجوّ والمحيط الحيويّ، ومكّنت من انتشار الأمراض والأوبئة وهُم مُهدَّدون على الدّوام بالموت، وهذا ما يزيدُ من احتمال فناء البشريّة. وإنّ العالمَ، لَعُمرُهُ خمسُ دقائقٍ فقط The world is only five minutes old [36] كما يقولُ كريستوفر بيلشُو C. Belshaw، يعاني من آلامِ شيءٍ يمكنُ أن يكونَ إمَّا ولادةً أو موتًا. يبدو أنّ الجنس البشريّ غير قادر على أنْ يلدَ الإنسانيّة Humanity [37].

فبِقدرِ ما العولمة نجحت في رسم هويّة واحدة مشتركة، مفتوحة على التّنوُّع والتّعدُّد بتوحيد أبناء المعمورة عبر وسائل التّواصل والتّفاعل الاجتماعيّ، والنّقل السّريع للمعلومات، وحريّة الاقتصاد، وفتح الأسواق العالميّة والحدود، تحت الشّعارات الّتي ساقها دُعاة اللّيبراليّة والرّأسماليّة ومبادئ النّظام العالمي الجديد، فإنَّ التّطوُّر الهائل الّذي يشهدهُ قرنُنا سيظلّ مفتوحًا هُوَ الآخر على شتَّى مظاهر الهمجيّة والهيمنة والاستعمار والعداوة والتّعذيب والتّفرقة والإبادة الجماعيّة، والتّمييز العنصريّ والإيديولوجيّ والدّينيّ بين الثّقافات، وبدلًا منَ الحديث عنِ ازدهار هويّة مشتركة متجانسة تؤمن بفكرة وحدانيّة وتعدُّد الفرد معًا، وتحوِي بداخلها كلّ الهويّات المتعدّدة، وعلينا أنْ نعلم أنَّ هذهِ أحد أهمّ مكاسب عصرنا من وِجهة نظر موران: في عصر الكوكبة، يمكنُ لكلّ فرد ويجبُ عليه أنْ يُنمّي" الهويّة المتعدّدة " الخاصّة به، والّتي تُدمِجُ هويّة الأسرة والهويّة الإقليميّة والهويّة القاريّة و" الكوكبيّة ". لكنَّ الشّخص الهجين يمكنُ أنْ يجد في جذور تعدُّد هويّاته أسرتهُ ثنائيّة القطبيّة، وعرقيّة ثنائيّة القطبيّة، وثنائيّة قطبيّة وطنيّة أو حتّى قاريّة تمنحُهُ هويّة إنسانيّة معقّدة وكاملة [38]، فنحنُ نسيرُ باتّجاه حركة مُعاكسة، نحو الوحدة المنفصلة المنغلقة على ذاتها.

ولكن كلّ ما نحتاجُهُ الآن حسبَ موران، هُو إبداءُ بعضِ الاستعداد للتّفكير في مُستقبلٍ أفضل قادر على حماية الإنسان والمحافظة على الأرض، بالاغتراف من الماضي الّذي هُوَ شرطُ أصالتنا ومواجهة الحاضر بكلّ تحدّياته السّلبيّة والإيجابيّة، في السّعي إلى تقديم ما هُو جديد وإبداعيّ ومُبتكر لخدمة الكائن الإنسانيّ وعِمارة الأرض، ولأنَّ الإبداع والابتكار لا معنى لهُ أو ليسَ مفصولًا عن قوى وقدُرات الفرد، وفي الإيمان القويّ بأنَّ هناك إمكانيّة أخرى تتعلّق بلَمّ شتات الأمم والمجتمعات وهُو ما يُحيلُ على المصير المشترك على الأرض، مصيرًا نكون قادرينَ فيه على شرح العلاقة الإنسانيّة الّتي تجمع بين شعوب العالم بواسطة قيم المحبّة والحبّ. وإنَّهُ لَحَقٌّ هذا الّذي قالهُ موران:" ما عانتِ الإنسانيّةُ من نُقصٍ في الحبّ. لقد أنتجت غلوًّا في الحبِّ انقضَّ على الآلهة، والأصنام، والأفكار، وارتدَّ على البشر فتحوّل إلى تعصّبٍ وإرهاب "[39].

ولكن في غمرةِ الحبّ " أكتشفُ الإنسان " [40] في أسمى حالاتهِ قبلَ نفسي، ولا يستطيعُ أحدٌ إشباعَ رغبتهِ في اكتشافِ الإنسان ولا حتّى تخطّيها. وهذهِ النّظرة الّتي يُقدّمُها إريك فروم E. Fromm لا يمكنُ لها أنْ تستمرَ معنا طويلًا إذا ما انطلقنا فقط من الحبّ الّذي نستقبلُهُ وليس من الّذي نحملُهُ إلى الآخر، وهذا يدلُّ على أنَّ الحبّ الحقيقيّ يعتمدُ في صورتهِ النّهائيّة أيضًا على قدرة العطاء الذّاتيّة لأجلِ الآخر، وإذًا لا يُناقضُ برتراند راسل B. Russel نفسهُ حينما كتبَ قائلًا :" الحبُّ الّذي يستقبلُ يجبُ أنْ يحرِّرَ الحبّ الّذي سيَمنح " [41]، ولنا أنْ نسرَحَ في تصوُّر حياة المرء على ما ستبدُو عليه بفعلِ قوّة العطاء في الوُجود الإنسانيّ. بالإضافة إلى قيمة العاطفة والإحساس بالأخوّة، والمساواة، والمسؤوليّة، والاحترام والتّفاهُم المتبادل، وتنمية أواصر الصّداقة والتّعاون والتّضامُن والحوار.

من الضّروريّ إذًا كما يؤكّدُ موران أنْ تحُلَّ الوحدة واللّقاءات والتّنوّع محلَّ التّجانس والانغلاق على التّأثيرات الخارجيّة، يجبُ أنْ تحُلَّ الثّقة المتبادلة محلَّ الانفصال وتؤدّي إلى التّعايُش – الحكمة للعيش معًا [42]، من خلال العودة دائمًا إلى الفكرة القائلة بأنَّ: الكوكب ليس نظامًا عالميًّا ولكنَّهُ اضطراب من التّحريض المستمر، يفتقرُ إلى مركز التّنظيم. في الوقت الحاضر لدينا هيمنة مُؤقّتة (ولا أحد يعلمُ إلى أيِّ مدًى ستستمرُ) ولكن ليس إمبراطوريّة عالميّة مُنظَّمة [43]. وهذه القناعة الّتي يؤمنُ بها إدغار موران، في أنَّ التّربية عليها أنْ تتضمّن أخلاقًا مُتعلّقة بالفهم الكوكبي، والّتي يمكن لأيّ أحدٍ منّا أنْ يتّفقَ معها أو لا يتّفق هي ما يجب على علماء التّربية أنْ يُعلّمونا إيّاها، أولئك الّذين لا يستطيعون رُبّما فهم هذهِ الأخلاق، أو على الأقل إقناع أنفُسهِم بهذهِ الفكرة.

خاتمة:

لقد حاولنا في هذا البحث أنْ نضعَ القارئ أمام الخطوط العريضة لتربية المستقبل عند إدغار موران، عناصرها، أهدافها، وغاياتُها، ولوْ بشكلٍ مُوجَز، ومع ذلك يمكنُ تلخيص ما قدّمناهُ في النّقاط الآتية، مع ضرورة التّأكيد على أنّ ما قدّمهُ إدغار موران لا شكَّ في أنّهُ ينطوي على نصيبٍ مُهمّ من ذلكُمُ الاعتراف الجريء الّذي قد يحتملُ الصّواب كما يحتملُ الخطأ، مع أنَّ كلّ ما يمكنُ أنْ يُقال هُوَ أحد أهمّ الإسهامات الجليلة في مجال فلسفة التّربيّة:

- ليست التّربية عند إدغار موران مفهومًا بسيطًا، في إكسابها معنى المعرفة التّقليديّ، وإنّ المزيج المتعدّد والمتنوّع من المعارف التّي نتلقّاها داخل حجرة الدّرس يبقى مُجرّدَ فكرة أوّليّة، نتصوَّر بها التّربية ليس إلّا، وهذا التّصوّر وحدهُ هُوَ ما يسمح بإعادة تقييمها وفحصها، ما يعني أنّهُ من الصّعب تجاهُل تلك النّقائص والثّغرات الموجودة في قلب كلّ تربية تُلقّنُها المدارس لأبنائنا، وإنّ التّربية بمقدُورها أنْ تنفتحَ أيضًا على ما همّشتهُ مناهج وبرامج التّعليم السّابقة، حتّى تدمِج وتصهَر في داخلها ما كان عُرضَةً للإلغاء والطّرد، من دون أنْ تفقدَ بطبيعةِ الحال أصالتها ورصانتَها، ثراءها وتأثيرها.
- تحوي التّربية في ذاتها على إمكاناتٍ كثيرة، ومن هذا المنظور فإنّها تسعى لتحافظ على نوع الحُضور القويّ لمعنى الأرض والإنسان، الأنا والآخر. إنّ غاية التّربية، بل ما يتقدَّمُها، كامِن في شكل الاعتراف بضرورة تقويم وضع الإنسان إزاءَ ذاتهِ أوّلًا، ومُجتمعهِ ثانيًا، كمرحلةٍ مُمهِّدة لإعداد جيل المواطنة الأرضيّة.
- وفيما يخصُّ الأسئلة الّتي نطرحُها حول مُستقبل التّربية والتّعليم في الوطن العربي، لا بُدَّ في هذا المقام من أنْ نُشير إلى ضرورة تعليم وتَعلُّم ما يعنِيه الكائن الإنسانيّ، بأنّ الفرد هُوَ أوّلًا ودائمًا وِحدة مُركّبة، يتقاطع فيها البُعد الثّقافيّ مع الدّينيّ، والبيولوجيّ مع النّفسيّ والفيزيائيّ، والتّاريخيّ مع الاجتماعيّ واللّغويّ وهلُمَّ جرًّا...، وبأنّ ما يجبُ على التّربية والقائمين على هذا القطاع خاصّةً في ظلّ الأزمات الّتي يعيشُها العالم النّامي على مدى سُنُونَ خلَت، هُو أنْ يجعل من تعليم الهويّة المركّبة للإنسان على رأس كلّ برامج التّعليم، وذلك بالاستفادة كما أكّدَ إدغار موران من جُلّ ما تُوفِّرهُ المعارف الحاليّة من أدب وفلسفة وطبّ وتاريخ وبيولوجيا، لا بل في أنّ ما يبدُو من انفصالٍ ظاهريّ بين علوم الطّبيعة وعلوم الإنسان هُوَ ما يُثبتُ وِحدة وتنوُّع المعرفة الإنسانيّة.
- إنّ هدف التّربية هو تكوينُ الإنسان وهدف التّعليم هُو تكوينُ الفكر [43]، وهذا ما يُشكّلُ فرقًا واضحًا في الموقف والأسلوب من طريقة التّربية والتّعليم التّقليدي منهُ والحديث، ومالِيَ لا أعجَبُ من توَجُّهِ التّربية التّقليديّة إلى تنميّة الفكر بواسطة النّقل الحرّ للمعلومة دونَ ما سواها، وهوَ في الحقيقة لا يعدُو إلّا تكديسًا لمجموعةٍ من المعارف، تُعتبرُ ضروريّةً ومفيدة للمجتمع. والتّربية إذْ تُنتجُ إنسانًا عاقلًا قويًّا في فكرِهِ دونمَا فهمٍ لأمور الحياة الواقعيّة، دونمَا النّفاذ إلى صميمها، فهي لا تستطيعُ إنتاج إنسانٍ متكاملٍ في كافّةِ جوانبهِ، قويٍّ في شخصيتهِ، مُتّزِنٍ نفسيًّا، مُرهفٍ في حسّهِ، قادرٍ على العطاء، وإذّاك ديدَنُ روسُو منذُ إميل، وكانط ودوركايم وفلوبير ... في تفكيرِهِم أيضًا. هذا وفوقَ ما نحملُ من معرفةٍ كثيرةٍ أو قليلة فوقَ جسمٍ هزيل هناكَ عاطفة مفقودة أو مُضمَرة، وطاقاتٌ فاقدَة لروحِ الإبداع والمبادرة والفعل في التّاريخ، وبشرٍ فاسدي الطّباع، لا يزيدُنا وُجودُهُم تشريفًا ولا قيمةً.

تُعلّمُنا التّربيةُ الفكريّة كيف ننجح لا كيفَ نعيش، كيف نعرف لا كيف نكونُ بشرًا قادرين على التّعلُّم ولوْ أنَّ المعرفة في غالبِ الأحيان لا تجعلُ منّا ناجحين حتّى في ميدانِ عملنا.

لا داعي لِأنْ نقول إذًا، أنَّ على التّربية أنْ تمضي بعيدًا عن ماضي أسلافها القديم، فقط كان التّعليم جملةً وتفصيلًا على رأس التّربية، أمّا الآن فقد حانَ الوقت لقلب الأدوار، وتلك هي المرحلة الحاسمة من تاريخ التّربية في عالمنا الجديد.

الهوامش:

(1) جان جاك روسو، إميل أو تربية الطّفل من المهد إلى الرّشد، الشّركة العربيّة للطّباعة والنّشر، القاهرة، د.ط، د.س.ن، ص25.

(2) المرجع نفسه، ص 27.

(3) أوليفيه رَبول، فلسفةُ التّربية، دار منشورات عويدات، بيروت، باريس، طبعة 1982، ص 48.

(4) إدغار موران، واسمُه الحقيقي إدغار نحُوم، فيلسوف فرنسيّ وُلِد في باريس في 8 تموز/يوليه 1921، حاصل على درجة الدّكتوراه الفخريّة في العديد من الجامعات حول العالم. كانت الحرب الإسبانيّة في عام 1936 بمثابة أوّل التزام سياسي له. وخلال الحرب حصل على إجازة في التاريخ – الجغرافيا وكذلك إجازة في القانون. بعد التّحرير نشر كتابه الأوّل L'An Zero de l'Allemagne ثم انخرط في الصّحافة، ولا سيما إنشاء مجلة Arguments في عامّ 1956. في عامّ 1950 انضمَّ إدغار موران إلى المركز الوطني للبحث العلمي، في عامّ 1956 نشر السّينما والإنسان الخياليّ، في عامّ 1965 نشر Commune en France : La Métamorphose de Plodemet و La Rumeur d'Orléans سنة 1967. في عامّ 1970 وفي نهاية ذلك العقد، طوَّرَ ما عرَّفه في عامّ 1982 بأنّه "فكر مُعقد pensée complexe" وبدأ في كتابة عملهِ الرَّئيسيّ " المنهج La Méthode "، الّذي يحتوي على ستة مجلدات تمَّ نشره بين عامي 1977 و 2004. فكرُهُ من خلال أعماله حاضر في أكثر من أربعين دولة. يسعى الآن إلى التّفكير في العولمة وهو ملتزم بالكفاح البيئي.

من الموقع الإلكتروني: https://www.franceculture.fr/personne/edgar-morin، تاريخ الاطلاع: الاثنين 12 أكتوبر 2020، السّاعة: 09:41 صباحا.

(5) لمزيد من التّفاصيل راجع كتاب: إدغار موران، تربية المستقبل" المعارف السّبع الضّروريّة لتربية المستقبل"، دار توبقال للنّشر، المغرب، طبعة 2002.

(6) إدغار موران، تعليمُ الحياة" بيان لتغيير التّربية "، منشورات ضفاف، لبنان، طبعة 2016، ص 95.

(7) هربرت سبنسر، التّربية، مؤسّسة هنداوي للتّعليم والثّقافة، القاهرة، طبعة 2015 ص 15.

(8) إدغار موران، تربية المستقبل، مصدر سابق، ص 23.

(9) المصدر نفسه، ص 23.

(10) هنري برغسون، الطّاقة الرّوحيّة، المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر، لبنان، طبعة 1991 ص 101.

(11) حول وهم الاستكشاف الخاطي، يمكن مراجعة الفصل الخامس" ذكرى الحاضر والاستكشاف الخاطئ"، من كتاب: هنري برغسون، الطّاقة الرّوحيّة، من ص 101 إلى 141.

(12) هنري برغسون، الطّاقة الرّوحيّة، مرجع سابق، ص ص 101،102.

(13) المرجع نفسه، ص 105.

(14) ميلان كونديرا، كائنٌ لا تُحتَملُ خفّته، المركز الثّقافي العربي، المغرب، طبعة 1998، ص 06.

(15) المرجع نفسه، ص 06.

(16) إدغار موران، المنهج" الأفكار، ج4 "، إفريقيا الشّرق، المغرب، طبعة 2013، ص 365.

(17) المصدر نفسه، ص 366.

(18) إدغار موران، تربية المستقبل، مصدر سابق، ص 25.

(19) المصدر نفسه، ص 25.

(20) المصدر نفسه، ص 25.

(21)المصدر نفسه، ص 26.

(22) المصدر نفسه، ص 26.

(23) فاهم بن عاشور، الدّور المعرفي للتّربية المستقبليّة من منظور إدغار موران، مجلة الحوار الثّقافي، الجزائر، المجلّد 08، العدد 01، 2019، ص 192.

(24) إدغار موران، تربية المستقبل، مصدر سابق، ص 26.

(25) مصدر سابق، ص 26،27.

(26) المصدر نفسه، ص 28.

(27) إدغار موران، المنهج" الأفكار، مقاماتها، حياتها، عاداتها، تنظيمها، ج4"، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، طبعة 2012، ص 359,

(28) إدغار موران، المنهج" معرفة المعرفة، أنثروبولوجيا المعرفة، ج3"، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، طبعة 2012، ص ص 330،331.

(29) المصدر نفسه، ص 335.

(30) إدغار موران، تربية المستقبل، مصدر سابق، ص ص 31،32.

(31) المصدر نفسه، ص 29.

(32) المصدر نفسه، ص 33.

(33) المصدر نفسه، ص 32.

(34) المصدر نفسه، ص 32.

(35) المصدر نفسه، ص 70،89.

(36) Christopher Belshaw, Annihilation(The sense and significance of Death), ACUMEN, stocksfield, First published in 2009, p 05.

(37) Edgar Morin, The Agents of double globalization, World futures(the journal of General Evolution), Edited by Ervin LASLO/ Taylor and Francis group(Routledge), Iss 02, Vol 53, February 1999, p 153.

(38) Ibid., p 160.

(39) إدغار موران، المنهج" الأفكار، مقاماتها، حياتها، عاداتها، وتنظيمها،ج4"، مصدر سابق، ص ص 355،356.

(40) إريك فروم، فنُّ الحبّ" بحث في طبيعة الحبّ وأشكاله "، دار العودة، بيروت، طبعة 2000، ص 36.

(41) برتراند راسل، انتصارُ السّعادة، المركز القومي للتّرجمة، القاهرة، طبعة 2009، ص 201.

(42) Edgar Morin, The Agents of double globalization, Op.Cit, p 159.

(43) Ibid., p 152.

(43) لمعرفة أكثر حول الفرق بين التّربية والتّعليم، راجع الصّفحات من 504 إلى 508 من كتاب: عبد اللّه عبد الدّائم، التّربية عبر التّاريخ" من العصور القديمة حتّى أوائل القرن العشرين "، دار العلم للملايين، بيروت، طبعة 1984.